

مدن عربيّة : ٤ الكويت

سأبا شبر

للمدن العربية ، شأن معظم المدن في العالم ، ايجادها وضعفاتها ، ولها محامدها ومعاييبها . وهي كائنات « تولد » وتنمو وتموت ، وتبعث حية اذا اقتضت ذلك الضرورة ومتطلبات الزمان والمكان وزخم الحياة . وفي المظاهر المجيدة للمدن العربية ، كالقدس والقاهرة وبغداد ودمشق وتونس وغيرها ، ايجاد لنا ، مثلما في المظاهر المحزنة للمدن المذكورة نفسها ما يبعث فينا الحزن . والقديم والجديد يتشابكان في هذه المدن ، ويتشابك فيها كذلك الرونق والبشاعة . ولا ينفك الزمان والمكان يلطمان العين والعقل معا ، بينما تقوم حواس اللمس لتسجيل سائر الصفات المميزة للقديم والجديد والرديء . وتمتلئ مدننا العربية بالقصور والاكواخ ، وقد نُحطّ فيها بتاريخ العربي وفكره ونفسيته وشخصيته وحقيقته العظيمة — الحقيقة العالم العربي ، الذي لا يزال ينظر البعض اليه كمجرد حلم ، مع ان القاسم المشترك بين مدنه وتواريخها وهندستها المعمارية قوة صاهرة لما فيها من تشابه وتماثل وتوحد .

والمدن العربية شبيهة بعينات النبات والحيوان . فانه يمكن تصنيفها بسهولة ، لكن ذلك لن يؤدي الى اية غاية مفيدة . ففي هذه المدن نواحٍ سامية ونواحٍ وضيعة ، السامي منها يكافح دوما كفاحا ضاريا ضد الوضع . والضعف السكانية ، وتأثيرها اذيل النفط ، ويقظة الجماهير المغنوبة على امرها ، واستراتيجية الحرب الباردة ، وتوقها للراحة والبذخ والرفاهية ، وتزعته نحو التهرب من صعوبات الحياة وحقاتها — فله كلها مكتوبة بوضوح على وجه المدن العربية ومحفورة بعمق في كيانها وتركيبها بنسبة تخطيطها .

والكويت اكثر المدن العربية اثارا للدهشة . ان هذه المدينة العربية غير العادية مجهر كبير ومنظار مقرب للعربي في آن واحد ، لعقله ونفسه وروحه ومثله وآماله . انها افضل صورة مكبرة ومصغرة للعربي ، اذ هي تعكس تراثه وتاريخه ، مثلما تعكس وضعه الحالي ، وتحواحي القوية وغير القوية كثيرا فيه ، وسعيه (المتشد والمنظم احيانا والمحموم وغير المنظم احيانا) الى احتلال مكان لائق تحت الشمس . فهنا ، في الكويت ، مزيج مختلط من العرب ، جاؤوا من سوريا وفلسطين والاردن ومن لبنان ومصر والسعودية ومن العراق اليمن ومن سائر انحاء منطقة الخليج العربي ، والتحموا مع ابناء البلد فيه باعداد متساوية

تقريبا . ولا يقلل من اهمية هذا المزيج من العرب وجود مزيج آخر من الايرانيين والباكستانيين والهنود ومن الشعوب الاخرى ، حتى البعيد منها كاليابانيين والامريكيين وهؤلاء الوافدون الجدد يحضرون معهم شيئا من مدنهم ، يأتي كل منهم بصفة مميزة ، تضيف الى لون الكويت وجوها لونا وجوا ، وتغير فيها من هذه الناحية او تلك .

وقد انبثقت مدينة الكويت فجأة ، على عكس المدن العربية التقليدية ، وخاصة العواصم والمدن الرئيسية منها ، واتسعت ، وامتدت لتصبح مدينة ، ثم عاصمة ، ثم دولة ، - كما هذا في فترة لم تبلغ عقدا ونصف العقد من السنين . وكثير من معالم الكويت ومن مميزات غزيرة فريدة ، بسبب مجبوحه العيش العظيمة الناتجة عن اكتشاف النفط وتسويقه بكيمياء هائلة ، بحيث يحتاج البحث في وضعها الفذ المتشعب الى مجلدات عديدة . والواقع ان كلمة « فذ » ليست اللفظ الانسب لوصف الوضع في الكويت : وربما اصبحت كلمة « كويت » يوما ما ، مرادفا لكلمة « فذ » . فالكويت فذة فريدة في العمران وفي البجوحه ، وفي الطموح والجرأة والتطور ، وفي الحكم وفي البنيان الاجتماعي . وربما كانت الكويت فذة فريدة ايضا في كونها في الواقع مدينة طبيعية عادية تتمتع ببجوحه غير طبيعية وغير عادية .

الكويت ، كمجتمع ، مثال للمدينة العربية . اما الكويت كمدينة فقد تكون كل شيء الا ان تكون مثالا للمدينة العربية . ان تكوين الكويت المدني وتركيبها العمراني وجفافها وفقدان ماء الشرب الطبيعي فيها ، وبدايتها المتواضعة التي تفتقد الى الامتداد التاريخي المتواصل والى آثار الماضي ، وصحون البيوت ونوافيرها و « ديكوراتها » الداخلية العربية السائرة كلها الى الزوال ، وما فيها من سيارات ضخمة عديدة تلقاها من تلتفت ، وكلها انيقة وجديدة ، - ذلك كله يسهم معا في جعل الكويت صورة مغرب لاتجاه عمراي عالمي يبحث عن اسلوب ومصطلح ، عن شعرونثر مديني ، او حتى علامات وقف وترقيم ، عن هدف وحلم . الكويت مدينة ومع هذا فهي ليست بالمدينة هي مدينة ودولة ، مدينة - دولة من عهد خاص غريب من عهود النهضة . انها مدينة صلبة وخشنة وخجولة ، تثير كافة انواع ردود الفعل الجمالي ، ومع هذا فهي مدينة بريئة تستحق الاعجاب والعطف وتتميز بمميزات وعلامات فارقة من نواح كثيرة . وبدلا من ان تتركز براسيها التاريخية المتواضعة وبتراثها البسيط الجميل ، فانها ترتبط بالمستقبل : بمستقبل البجوحه والرخاء والترف ، الذي تتوق له سائر المجتمعات - الا الكويت ، التي بدأت منه بسرعة .

ما يدهش المرء اكثر من اي شيء آخر في الكويت ، جدتها جدة غريبة . ولا يمكن

القول ان الكويت مثال للمدينة العربية الجديدة ، لان معظم معالم المدينة العربية (باستثناء المساجد) تصعب رؤيتها واختبارها في الكويت . وفي الكويت شبكة من الطرق العريضة (هي في الواقع اشبه « بطرق سباق ») لم تجرؤ اية مدينة عربية بعد على شق مثلها خارج المدن - بله داخلها . وما على المرء الا ان يتخيل ماذا ستكون عليه مثل هذه الشبكة من طرق السباق ، لو انها تشق الاحياء القديمة من القاهرة او القدس او دمشق وتربطها مع الاحياء الجديدة فيها ربطا مصطنعا غير عضوي . ومع هذا فقد كان الامر في الكويت مختلفا وبدا وكأنه هو الامر الطبيعي ، وذلك لان سور المدينة كان من الدقشوم ولم يكن من الحجر ، وكانت المباني من الدقشوم لا من الحجارة ، وكان تخطيط المدينة مسطحا غير متموج ، وكانت المبالغ المدفوعة كتعويضات لاصحاب الاملاك والاماكن المتأثرة بالعمل خيالية باهظة . وهكذا تمت عملية تهديم المدينة القديمة واعادة البناء ، هذه العملية المعجزة الواسعة النطاق ، بسرعة خاطفة ، وتمت بالتالي عملية بناء مدينة هائلة جديدة كل الجدة تقريبا .

فوق رقعة صحراوية فريدة ووعرة يمتد كيان وتركيب مدينتي ، الى جانب معمار المدن والحلاء بعيد جدا عن الصنف الفريد الذي تحتاج له الرقعة الصحراوية ، ان لم يكن قريبا عنها . وبالرغم من هذه « المخالفة » للقواعد المدنية والمعمارية القياسية ، لا يزال كيان المدينة ومبانيها وحدثاتها يسير بسرعة محمومة نحو التطور ، ويبدو انه ما من احد يلاحظ ذلك ، بالرغم من جميع الاعتراضات التي قدمت ضد هذا الاسلوب في العمران في السنوات اخيرة الماضية . والكويت تختلف في هذا المجال عن معظم المدن العربية . فقد قامت هنا ضخمة كبرى لا تزال قائمة وربما ستظل قائمة لوقت طويل - ملحمة من العمليات الضخمة ، يجمع بين الطرق والمباني ويجمع متجانس يحدوه سباق عنيف مع الزمن ، للنجاح وتكديس الترابح وكسب الاعتبار واحداث اثر على قشرة هذه الكرة الارضية .

لا شك ان الكويت تختلف عن سائر المدن العربية . انها مدينة جديدة . حتى المدينة القديمة ، على نقيض سائر البلدان والمدن العربية على مر التاريخ ، هي ايضا مدينة جديدة . اما المدينة الجديدة فهي جديدة بشكل غريب ومثير . هذه الجدة ، وما يكمن فيها من اسباب ، هي التي تجعل من الكويت مدينة فريدة فذة ، ان لم تكن بدعة ، فقط بين المدن العربية وانما ايضا بين المدن في كل زمان ومكان .

وبينا يترك التاريخ وسير التاريخ اثره بشكل ثابت على ملامح بعض المدن العربية ، بغداد ودمشق والقدس ، لا نجد على الحيا العمراني للكويت تجاميد التاريخ ولا نرى تلك الجمال فيه . لكننا نجد على وجهها قطعة ضخمة جدا من التضاريس العالية المنبثقة مثل البادية العربية المحرقة ، وهي تروي قصة مدينة تكافح الطبيعة بصلابة غريبة

مكرسة ، تؤكد على طبيعة العربي المندفعة بعزم فريد على صنع قصبهٍ عربية حديثة على وجه رمال الصحراء العريقة ، سرابٍ شيء حقيقي ، مهما كان الثمن ومهما كانت التضحيات ومهما بلغ الطيش .

تتمسك المدينة القديمة ، التي تقاسي من مد وجزر العمران الجديد الذي لا يرحم ، بموقف الكويت القديم كحامية شهمة تزدود عن الحصن في وجه عدو متفوق قاسٍ . والمدينة القديمة ، التي تقوم هناك عارية خجولة يمزق جسدها البولدوزر وعمليات الثمين السحرية انما هي بجد ذاتها ملحمة بطولة ، قصة هوميروسية ، وربما فلتة من فلتات التاريخ الشاذة كيف جاءت هذه الكويت القديمة الى الوجود اساسا ؟ ولماذا جاءت ؟ وكيف صمدت ونجحت ؟ ولماذا تمسك سكانها بهذا الموقع من الارض بهذه الشدة ؟ ولماذا تعرضت لضربات البولدوزر المؤلمة مدة الملايين من ساعات عمله ؟

بسبب النفط ، طبعاً . فكمن ينتظر بمزيج عجيب من الصبر وعدم الصبر ، تحم الكويتيون الامر حينما كانت الحالة مستحيلة تقريبا مدة طويلة الى ان يتم اكتشاف النفط يوما ما . وعندما اكتشف انتج بكميات هائلة جدا : هائلة لدرجة انها جعلت الكويت تقفز من حقبة عمرانية معينة ومجتمع معين وطرز هندسي يميز ، الى حقبة ومجتمع وطرز اخرى ، لها اشكال ومعالم على طرف نقيض من معالم تلك واشكالها .

يرى الزائر عددا من المباني العتيقة منشورا في الكويت القديمة بين كتل المباني الجديدة بينما الوضع هو عكس ذلك في معظم المدن العربية ، حيث تنتثر المباني الحديثة بين القديمة هذا هو الانطباع الذي يكونه الزائر اذا حملته سياحته على التجوال ماشيا في درق الكويت القديمة وزواربها . فسرى عند كل منعطف بقايا ماضٍ قديم ، ماضي الامم فقط ، يجاور الجديد جيرة غريبة ، وسرى الجديد ايضا يجاور القديم ، يجاور الامم جيرة اشد غرابة . وقد يتأمل المغامر الحساس ، الذي لا يهتم بالتبدل بجد ذاته بل يهتم بالتبدل ونوعيته ، في المناظر المحيطة في القديم تأملا عاطفيا ، وقد يفمره الجديد بالاعجاب لما فيه من مناظر الانشراح والسعة .

ليس في مدينة الكويت ، لا القديمة ولا الجديدة ، ككيان لم يستقر ويتبلور بعد توازن ولا انسجام ولا مقاييس ولا تناسب في الطريقة التي تفعل فيها المباني والشوارع والدورات والحدائق وتفاعل وتنعكس من اجل ايجاد شكل عمراني وتجمع عمراني فبعض المعالم العمرانية الجديدة السمجة تتضخم بدون تناسب لتصبح هي الغالبة ، ترق معالم اخرى ، كالمساجد والبنائات القديمة ، بفعل التصميم او الامهال ، وتضعف وتتواجد المعالم الغالبة والمغلوبة في نظام عجيب من الانتظام ومن الفوضى (يتوقف ذلك على طريقة نظرة الانسان اليها) حتى اضحت المدينة خليطا عجيبا من اشكال ش

وتسيطر السيارات والطرق ذات الخطين والدورات المتزايدة ، على رمال الكويت
سيطرة مطلقة. ويكاد يصرف المرء وقته كله في السيارات، او على جانب السيارات ، او
بين السيارات ، لقضاء كل حاجة مهما كبرت او صغرت عليه قضاؤها. فالتنقل بالسيارات
على طرق دولية ممتازة متقوسة وفي دوائر يميز هذه القصبه العربية الفتية ، المتشامخة ،
الديناميكية ، الخجولة ، المحيرة .

في الفدان الواحد في الكويت من القصور والفيلات والمدارس ومن مراكز الاطفائية
والعيادات ومن الجوامع ومراكز الشرطة والمراكز الاجتماعية ومن اعمدة الكهرباء
وانتينات التلفزيون ومن السيارات والشاحنات والدكاكين ومن كل انواع الدارات الحديثة
وسائر المباني (وكلها تتعايش هندسيا في فوضى منظمة) اكثر مما يوجد منها في اية مدينة
عربية اخرى ، ان لم نقل في اية مدينة اخرى في العالم بل في التاريخ . وتوجد هنا ايضا
اصخم محطة تقطير للماء في العالم ، ومصعد ضخم للحبوب ، واكبر مذخر للادوية في العالم ،
وسجن حديث لعلة احدث سجون العالم ، ومحطتا كهرباء ضخمتان ، بالاضافة الى عدد
هاثل من الاشجار في منطقة صحراوية لم تكن فيها قبل سنوات شجرة واحدة . ويمكنك
ان تشاهد الوان قوس قزح على مباني الكويت اكثر مما تشاهدها على مباني اي مكان آخر
في البلدان العربية ، وربما في العالم كله .

والكويت هي المدينة الوحيدة في العالم العربي ، بل وفي العالم كله في الواقع ، التي لا
يبي ضرائب بلدية . فالبلدية تحصل جزءا كبيرا من ميزانية الدولة للانفاق على نشاطاتها.
شبهو البلدية وكأنها مؤسسة مصرفية ضخمة للاراضي التي نزع ملكيتها من اجل اجراء
الغاة انواع التخطيط فيها . وتخصص مبالغ باهظة كل سنة لهذه « الهواية » التي تمارسها
البلدية بكثير من الاهتمام والجدية . والواقع انه ما من بلدية في العالم متنعمة اكثر من بلدية
كويت . وهي متنعمة لدرجة انها تكاد تنعم الجميع . وقد نتج عن ذلك ان كثيرا من
كويتيين اصبحوا اثرياء بشكل هائل ، وقد تسلت الى جيوبهم حصص ضخمة من عائدات
نقط بهذه الطريقة . وصار تعبير « دولة الرفاه » صفة للكويت . فتعمل وزارات
متممة واسعة الاجهزة لتأمين التعليم والصحة والخدمات الاجتماعية لحوالي نصف المليون
ممكن هذه المدينة الصحراوية الغربية ، - وان كانت هذه الوزارات تقصر احيانا عن
متموى والانتاج المطلوب او المتوقع . ومع ان المؤسسات الدولية والخبراء كثيرا ما
يجرون الى تدني القدرة على تنفيذ العمليات ، اذا ما قورنت بالمصاريف وبالنتاج المطلوب
يوقت معين ، تستمر الدولة في الانفاق وفي استخدام المزيد من الناس وفي مضاعفة
لادها من اجل تحقيق سياسة « دولة الرفاه » . وهذه نعمة ، على العرب وغير العرب

على السواء . فمشاهد التعاسة الانسانية التي تشاهدها في بعض المدن العربية الاخرى لا توجد هنا على المستوى نفسه من الوضوح والتأثير والشدة . وفي كل مكان من الكويت تمكن مشاهدة اول « دولة رفاه » تعمل في العالم العربي على نطاق واسع . والحقيقة ان نشاطات القطاع العام تطفئ في الكويت على نشاطات القطاع الخاص ، مهما حاول هذا القطاع جاهدا فرض ذاته . وهذا يختلف عما يشاهده الانسان في مدن عربية اخرى كعمان او بيروت او جدة . ان مدارس الكويت ومستشفياتها ، ومراكز الاطفائية والشرطة ، والعدد الكبير من مساكن ذوي المداخل المحدودة ، كلها صقيلة ووقورة ، وكلها نتاج التصاميم الهندسية المصقولة المتكررة ، وليست نتاج افراد من المهندسين الذين ينحتون المدينة العربية بغرائبهم الهندسية . ويختلف الوضع الطبيعي للمدينة في الكويت عنه في المدة الاخرى ، من حيث بنيانه وميزاته وقوابله . فقد انبثق هذا الوضع عن عدد من العوامل : عن البجوبة الفاحشة ، والسرعة ، وغياب العامل الاقتصادي عن التصميم والبناء ، والهوس فيما يتعلق بالعائدات من الاستئثار ، ومقدرة « المحترفين » من المهندسين والفنيين والمصممين ، وغير ذلك . وباختصار : ان الكويت عربية جدا في تصرفها الاساسي فيما يختص بثروتها الخيالية ، وقد تخلت عن المصطلح العربي ، التقليدي منه والمعاصر ، في العمران وفي الهندسة المعمارية تحليا كاملا ، بحيث انها اصبحت مدينة عربية لكننا من صنف قائم بنفسه .

كانت الكويت الى وقت قريب تشارك اخواتها العربيات في نمط بسيط وعضوي من هندسة المدن والمعمار ذات الصفات القوية المميزة وذات المبررات التي تنبع عن تجاوز الصحراء والبحر وعن الطقس القاسي وفقدان مواد البناء كلها تقريبا باستثناء الطين والطوب الجفف . وفجأة تحولت الكويت الى مجتمع فائق البجوبة ، فيه اعلى نسبة من دخل الفرد في العالم . فتحولت المدينة تحولات جذرية في العشرين سنة الاخيرة من كل ناحية وبكل معنى تأثر العمران والفن المعماري بهذه التغييرات كلها اكثر مما تأثر بها اي مظهر آخر من مظاهر المدينة . ونمت الكويت الجديدة بسرعة واتخذت وضعا لا يرتبط ادنى ارتباطا مع عناصر البيئة والتراث الاجتماعي والجغرافي والهندسي للموقع ذاته .

فابتعد الفن المعماري ابتعادا تاما عن معظم ما يعتبر علامات فارقة للفن المعماري المعاصر السليم ، واتجه صوب « الحيلة » المعمارية بدلا من ان يستوحى الاوضاع الاجتماعية والطبيعية القوية وبدلا من ان يستفيد من المال الموجود ويدعو افضل المواهب ليوجه التغيير المعماري والعمراني نحو وجهات حية ، فلا يلجأ الى ما لجأ اليه من هندسة شكلية خالية من كل معنى .

ان الذي يجري في الكويت فريد من نوعه . وما يجري في نطاق الفن المعماري يجري

لأنه يهز تفكير كافة المعماريين واختصاصيي تنظيم المدن ونقاد الفن العرب لبحثوا، بعمق، في المفزى الكامل للتغير المعماري والحضري الجذري وفي اسبابه وليسبروا غور الظاهرة النفسية الاجتماعية للسبب والنتيجة في ميدان الهندسة المعمارية من ناحية ، وفي تنظيم البيئـة وهندستها من ناحية اخرى .

ليس في الكويت احد لا يخطط ولا يضع المشاريع . فالكويت مهرجان حافل بتخطيط وللمشاريع على اختلافها . وترى فيها حشودا من رجال الاعمال والتجار المقاولين ، بالاضافة الى المهندسين والمعماريين وموظفي الحكومة بل والاطباء - فهنا اطباء ايضا يدخل بعضهم حقل البناء والتجارة والمقاولات كمهنة اضافية او كهواية - شودا من كل لون وخلفية وموهبة ، يتحدثون بطلاقة وبخبرة عن مشاريع تكلف ملايين الدنانير ويناقشون فيها ، وكأنهم يتحدثون عن سعر ربطة عنق او علبة سجائر . ليس في العالم كله مكان يبلغ فيه اهتمام الناس عموما بمشروع ما (من التخطيط الى التصميم والتنفيذ الى التقاضي من اجل « اوامر التغييرات » المختلفة) حدا اشمل وادق واحذق ادهى من الاهتمام الذي تشهده في الكويت . وكثيرا ما شعرت خلال عملي في الكويت خلال هذه السنوات الست الاخيرة بان المشاريع هنا ، لا السياسة ، هي التي تجمع بين من يجمع بينهم شيء . وفي هذه الايام بالذات يدور الاهتمام الرئيسي لدى شبكات اصحاب مشاريع حول مشروع شط العرب الذي تبلغ كلفته عدة ملايين من الدنانير ، ومشروع كورنيش ، ومشروع المدينة الرياضية الاولمبية ، ومشروع بناء ما يتراوح بين اربعة وخمسة آلاف مسكن لذوي المداخل المحدودة - هذا الى جانب مئات المشاريع اخرى التي تتفاوت بين بناء المراحيض العامة ومواقف الباصات وبناء المدارس الثانوية والمستشفيات . ان المشاريع هنا هي كالمتاجر الضخمة التي يباع فيها كل شيء ، وشبكة بياب المشاريع كزبائن المتاجر ذوي المزاج الصعب في الاختيار .

ليس غريبا اذاً ان يتعرض معظم البناء الذي حصل ، والمكان الذي حصل فيه ، الى حواره ، للنقد الموضوعي والعلمي والاقتصادي ، وان تحصى عليه وجهة النظر العلمية الاقتصادية ماخذ عديدة . وقد كانت عملية الانعاش الاجتماعي الجبارة ، التي اكل الصباح اسسها كهدف وكسعى سياسي اجتماعي فلسفي ، « بقرة حلوبا » توجهت الى الشبكة المهتمة بالمشاريع والوسطاء والكفلاء ، وادت الرغبة في اغتنام الفرصة الممتمت الفرصة سانحة الى استغلال عدد وافر من المشاريع . ان ضخامة وسعة عملية الترة والاشغال من كافة الانواع والمجالات والابعاد يجعلها ، اذا اخذنا قلة عدد العاملين بعين الاعتبار ، اعظم عملية نسبيا في تاريخ البشرية . والحقيقة ان المنجزات المادية

المعوسة على مسرح العمران في الكويت تشهد على ذلك بافصح مما يمكن ان تنطق به آليات الحساب الالكترونية .

ومع ان الكويت انفتحت بمنتهى الكرم على بيروقراطية من اغرب البيروقراطيات في التاريخ ، وعلى المستشارين والاختصاصيين والخبراء والمحاضرين ورجال هيئة الامم ، من سائر الاصناف والجنسيات ، وصرفت مبالغ خيالية على الاجتماعات والمؤتمرات عن كل موضوع تحت الشمس يمكن ان تفكر فيه ، لم تكن الخدمات والمشورة التي حصلت الكويت عليها مقابل ذلك صائبة سليمة على الدوام . فكثيرا ما كان الاشخاص الذين استقدموا لاعطاء المشورة اما اجهل من ان يقدموا مثل هذه المشورة ، او اخجل من ان يحاولوا ابداء رأي ، او اجبن من ان يفتحوا افواههم . وهذا ، برأبي ، ابشع الاختبارات التي عرفتھا هذه المدينة العظيمة . اما الخبراء والمستشارون الذين يجرؤون على تقديم نصائح صائب وموضوعي وعلى تسديد نقد بناء ، فانهم نادرون - نادرون في بلد يشكو الوفرة في كل شيء آخر . وهكذا تم بناء مدينة هائلة بدون ادنى اعتبار مادي للاقتصاد والمنطق والمستقبل والجمال والتراث العربي . فقد كان تدبير امور البلد على صعيد التنفيذ ، بالنسبة الى الفلسفة الموجهة وتدبير امور البلد على صعيد الحكم ، اقل عمقا وشمولا وحنكة مما كان مفروضا فيه ان يكون .

كان رد فعل الحكومة ، لتصحيح هذا الوضع ، ان قامت بالاجراء الطبيعي ، فاحضرت العشرات من الخبراء الاقتصاديين والمهندسين وغيرهم . وغالبا ما اعجزتها بعض العناصر المريبة بين هؤلاء الخبراء ، بفعل حسن النية او سوء المشورة . لهذا تدنت سمعة « الخبير في الكويت حاليا ، واصبح عرضة للحملات الصحفية . كما شاع الاعتقاد بان الفاشل في بلد هو وحده الذي يأتي الى الكويت لبيع « خبرته » . ومع ان ذلك قد يصح على الكثيرين فانه توجد استثناءات قليلة تناقض هذا الاعتقاد الشائع .

غير ان ما لا شك فيه ابدا هو ان الشخص الذي يلجأ الى الكويت او الى منصب في الكويت يتمتع بمستوى من العيش المادي اعلى منه في اية مدينة عربية اخرى . فالفيلا في الكويت اشبه بالقصر في اي مكان آخر . ويكلف البيت العادي المتوسط الحال ما تكلفه الفيلا في عمان او القدس مثلا . ويملك الناس سيارات كبيرة فخمة واثاثا ثمينا واجهزة تليفزيون والبستنة غالية ، ويتمتعون بتطبيب وتعليم مجانيين ، وبمرتبات تفوق المرتبات في اية مدينة عربية اخرى . لكن تتمتع الكويت بمستوى من المعيشة المادية هو اعلى مستوى ممكن تخفف منه ظاهرة اخرى : هي ان نوع المعيشة الاجتماعية والحضارية والثقافية والفنية والترفيهية لا يزال متخلفا عنه في المدن العربية الرئيسية .

الكويت مدينة عمال وموظفين وتجار . وهي ليست بالمدينة التي يؤمها الناس في العادة كما يؤمون بيروت او باريس او طوكيو او نيويورك . فليست فيها اماكن تسلية ، وليست فيها اية من وسائل المتعة التي يجدها المرء عادة في المدينة الحديثة الكبيرة . انما يجيء الناس الكويت لكي يشتغلوا ويقوموا بالاعمال الكبيرة او الصغيرة ويحصلوا على الثراء اذا امكنهم ذلك - او على الاقل كي يحصلوا معيشتهم بما فيه الكفاية عندما يصبح صعبا عليهم تحصيلها في البلدان الاخرى . وعلى هذا فالبطالة في الكويت نزرة يسيرة ، ولو ان اوقات الفراغ فيها وافرة . والجو العام فيها مشحون بفكرة « العمل العمل العمل » ، بدون اعتبار لنوع العمل او تأثيره او فعالته ، ما دام هذا العمل يدر مدخولا معتبرا .

ويشكل العمال جزءا كبيرا من مجموع القوة العاملة في الكويت ، فما يزال عمال المنشآت والميكانيكيون والفعلة على سائر انواعهم يعملون بجد ونشاط لبناء هذه المدينة الصحراوية الفريدة ، وللقيام بالخدمات المتعددة التي تتطلبها مجتمع ينعم بالبحبوحة . وموظفو الحكومة قوة حقيقية ، تسير دفة الادارة في المدينة والبلاد . والتجار يستوردون من الخارج كافة البضائع التي يحتاجها السكان ويستهلكونها ، من الدبابيس الى البولدوزرات .

وقد كان من نتيجة التركيب والبنيان العمراني قديما وحديثا ان احتشدت اغلبية المكاتب الحكومية والمؤسسات التجارية والمالية والمصرفية واتخذت مقرها في الكويت القديمة . لهذا ينجم عن التنقل من المنازل للمكاتب ومن المكاتب للمنازل حركة محمومة ومدتهجزر طاغيان ، تتميز بها الكويت على سواها ، اذ ان نمط الحركة وازدحام السير في المدن الكويتية الاخرى يتخذ طابعا آخر مختلفا عنه هنا .

وتشكل الهجرة الجماعية التي يقوم بها الناس كل صيف ظاهرة تكاد تكون فريدة . وان يأتي شهر تموز (يوليو) من كل عام حتى يهرع عشرات الالوف من السكان مصطحبين اثاثهم للفرار بهم الى اماكن يكون الطقس فيها اقل حرارة . وتتوقف جلسات البرلمان آنذاك ، ويكون المجلس البلدي في اجازة ، وتتخذ المدينة بأسرها طابع عطلة . اما الذين يبقون في المدينة فمقدار العمل الذي يطلب اليهم القيام به يصغر بكثير عن المعتاد ، وهذا يعوض عما يقاسون من حر لا يمكن ابدا ان يطاق - بالرغم من انه تكاد لا توجد عوقة في الكويت تخلو من جهاز للتهوية يعمل نهارا وليلا .

وهناك ضرب آخر من الهجرة ، يقوم به بعض السكان كل عطلة اسبوع على مدار السنة ، عندما تتوجه جماعات كبيرة قاصدة البصرة ، حيث يتاح لها ان تتمتع بكثير من الاشياء التي لا تجدها في الكويت او التي لا يسمح لها بها فيها . وتدر هذه الزيارات الاسبوعية مدخولا عاليا على البصرة ، لم تكن تعرفه قبل ان فرضت الكويت الحظر على طاطي المشروبات منذ حوالي سنتين .

ويملك السكان في الكويت ، اذا اخذنا عددهم بعين الاعتبار ، من السيارات والمنازل والآلات اكثر مما يملكها سكان اية مدينة عربية اخرى . وينطبق الشيء ذاته على استهلاك المشروبات الخفيفة ، واستهلاك الطاقة الكهربائية . ووسائل التسلية المحببة للسكان هي الحفلات والمآدب ، وسياقة السيارات ، والزهور في الزوارق ، وصيد السمك ، وصيد الطيور (« القنص ») .

اما في الليل فالكويت اشبه بمدينة اشباح . فليس فيها نوادي ولا علب ليلية ، ولا كازينوهات ، ولا يحد مغامرو الليل امامهم غير دور السينما ، ومنها هنا ثلاث او اربع ليرضوا بها اذواقهم الليلية . الا ان هذا لا يعني ان الكويت مدينة ميتة في الليل . بل انها على العكس من ذلك ، ربما كانت انشط مدينة ، ليليا ، في البلاد العربية . اما حياة الليل هذه فتتكون من حفلات خاصة ومن « الديوانية » ومن صخب السلك الدبلوماسي ومع ان المشروب محرم قانونيا ، تدبر الكويت امرها وتحافظ على سمعتها بان فيها دوما ما يرطب ، ولا يجد المرء جفافا في الكحول ايان كان في الليل . اما كيف يتم ذلك كما فسرت مغلق على ادراك كاتب هذا المقال وتخيالاته !

والكويت في الليل ، التي تنيرها انوار الشوارع من كافة الالوان واضواء السيارات التي لا تنقطع ، اختبار بصري جديد ، اختبار للعين جديد . وهي جذابة تستهوي النظر بشكل خاص من الجو ، اذ يرى المرء ، وهو على ارتفاعات مختلفة ، صورا متألثة مختلفة وخاصة صورا لشبكة الطرقات في المدينة ، التي تنعكس نحو قلب المدينة المتأجج النابض فتضيق معالمها ، وصورا للشوارع الرئيسية المنيرة المتحركة التي تتوهج كعقود لا آخر لها من اللؤلؤ والماس وغيرها من الحجارة الكريمة : وكأنها قطعة نحت متعددة الالوان متحركة . وتبدو دراما الليل في الكويت اكثر دراماتيكية اذا امّتها الزائر جوا وجاء ليلامن بيروت ، مثلا ، فر فوق مجموعات القرى المنشورة على الجبال اللبنانية ، ثم فوق دمشق وعبر الصحراء المظلمة الى الكويت . فتتكشف امامه ، رأسا ، صورة منظر مسطحة ، وتترامى له اجزاؤها وتنجلي له صفاتها الطبيعية - التي تعكس الظروف الاجتماعية والاقتصادية والتاريخية والمعاصرة - تماما مثلما يكشف الفيلم السالب عن الصورة في اللون الاسود والابيض .

تعكس المدن العربية في الليل التقدم الاقتصادي الذي حققه العالم العربي في العقدين الماضيين . قبل ذلك الحين كانت المدينة العربية في الليل معتمة صغيرة نسبيا . ثم ازدهرت ولا تزال تزدهر وتوسع لتسد متطلبات السكان ، الذين اخذوا يزدادون عددا ويزدادون (كما نأمل) استنارة ، فصارت المدينة اشد اغراء وجاذبية في المساء . والكويت

هي اكثر المدن العربية اغراء من هذا القبيل. يصدق هذا الوصف عليها حينما ينظر المرء اليها من
تل، حيث تقع الكويت المخططة ضمن نطاق الرؤية : كويت مئات الاميال من الطرق
الدولية الممتازة ، ومئات الدورات ، وملايين المصابيح الكهربائية .
غير ان للنظر على الارض ، على مستوى المشاة او حتى على مستوى سائقي السيارات ،
رد فعل مناقضا للمدينة الشائقة المتوهجة نورا ، بالرغم من انوارها الساطعة المتعددة
الالوان . وذلك لما فيها من فراغ الليل الواسع ، من شيء شبيه بليل « مدينة الاشباح » ،
اذ لا توجد حياة ليلية ظاهرة خارج قدس اقداس المنزل . فلا يرى الانسان غير سيارة تمر
بين آن وآخر ، منطلقة من دوار الى دوار ، وغير سهارى عائدين ، واحدا بعد الآخر ،
على الطرقات الفخمة ، مما يجعل المدينة تبدو في الليل خالية وباردة ، بسبب المسافات
وفرة كثافة السكان ووفرة الاراضي الخلاء .

يتصف المزاج في الكويت بالهدوء ، بينما تتصف الحركة بالسرعة والهيجان . فالمساحات
واسعة ومنبسطة ، واسعة ومنبسطة في الواقع لدرجة ان نفرا قليلا من المخططين
كانت لديهم الجرأة على ابداء الملاحظة (وهي الملاحظة الواضحة البديهية) بان المساحات
هي بالفعل واسعة ومنبسطة . وابعادها ، على نقيض بيروت مثلا ، هي حاصل الوفرة
الكبرى في تقاليد المدينة الجميلة التي تفجرت قبل اوانها ، جماليا وعمرانيا ، عاجزة عن
ادراك عناصر تخطيط المدن وتكوينها اللائقة بالكويت من النواحي العضوية .

كل شيء في الكويت مغالى فيه . ابعاد الطرقات والسيارات والمباني ضخمة جدا ،
وكذلك ابعاد الناس ، اما ابعاد الاشجار فقصيرة بالفعل . واسواقها مغمورة بالبضائع
والتناع من كل بقعة في الكون . فالقوة الشرائية هنا عظيمة وكبيرة ، واسعار الحاجيات ،
لباعد المأكولات ، منخفضة . ولذلك يشتري كل انسان ويستهلك ، ويشترى مرة بعد
أخرى ، ويستهلك ويستهلك . ومما يصبغ الحياة في الكويت ببريق خاص ، السلك
الديبلوماسي . فاعضاؤه يحضرون كل مناسبة ، وانت تحس بوجودهم لانهم كثيرو العدد
في بلد صغير ، فهم اشبه بسمكة كبيرة في بركة صغيرة . تراهم في المطار لتوديع مسافر
كبير ، وتراهم هناك ايضا لاستقبال عائد كبير . وهم يحضرون حفلات افتتاح المؤتمرات ،
يحضرون حفلات اختتامها . ويذهبون في المناسبات السعيدة للتهنئة ، ويذهبون في
المناسبات الحزينة للتعزية . وتراهم في هذه الوزارة او تلك ، او ترى سياراتهم الليموزين
في ترفرف عليها اعلام بلادهم ، وخاصة في مجلس التخطيط ووزارة التجارة والصناعة
(ومما حاليا متجاوران ، مما يسهل الامر عليهم) يستفهمون عن مصير هذا المشروع او
ذلك ، واين وصل العمل في خطة السنوات الخمس واين لم يصل ، ويقدمون خدمات خبراتهم

وتجارهم وشركاتهم ، ويدعون هذا الموظف الحكومي الكبير او ذاك لزيارة بلدهم
ويضعون معه برامج الزيارة العتيدة . ليس في العالم عاصمة « يصطدم » الانسان فيها بهذا
العدد الضخم من الدبلوماسيين كما يفعل في الكويت ، - بكل ما في كلمة « اصطدام » من
معنى حرفي . وفي الليل لا تتوقف حفلات الكوكتيل عن التسلية والابهاج والاخذ بالالباب
والاستحواذ عليها .

تقيم الجالية الدبلوماسية او سلسلة الجيوب الدبلوماسية الصغيرة في عدد من الفيلات
الغربية الاشكال على جانبي شارع الاستقلال او في الشوارع المتفرعة عنه ، وتقوم مكاتبهم
عادة على جانبي شارع فهد ، تزينها الاعلام الملونة . ان اثر الدبلوماسيين في مدن كلندن
او موسكو ، او حتى كالقاهرة او بغداد ، تحد منه كثافة المدينة ومشاكل الجماهير ومشاغلهم
واندفاعها وركضها لكسب العيش . اما في الكويت فان اثرهم يتضخم ويبالغ فيه بسبب
حدائث مجيئهم وصغر منطقة الاحتكاك بهم واناقة مساكنهم الظاهرة وحماهم الزائرين
للمشاريع وحبهم الغريب لبعض الموظفين والافراد .

في الكويت ، وهي المدينة والدولة ، والمدينة الام في اغنى دولة في التاريخ ، نشاط
دبلوماسي قوي يصعب على واشنطن ولندن وموسكو مضاهاتها فيه . وبما انها قصبه كبير
اذا ما قورنت بقرى كانت بسيطة هادئة فيما مضى ، مثل الحجره والفحليل ، وهي
ايضا المدينة الرئيسية التقليدية في المنطقة - فانها قد خضعت ، في غضون هذه الفتره
القصيرة ، لكثير مما كتبه ابن خلدون بخصوص القرى التي اصبحت مدنا .

لقد اوضحت الكويت مدينة الاعاجيب من بين المدن العربية . اوضحت شيئا يجعل
« الف ليلة وليلة » مجرد حلم بسيط . فهي من حيث الضيافة مدينة عربية مائة بالمائة
لقد قامت بدور المضيف السخي لعدد من الضيوف يفوق ، اذا قيس بالنسبة الى السكان
عدد ضيوف اي مضيف آخر في التاريخ . ولعله لا يوجد في التاريخ شبيه هذه الحالة
مدينة على هذا الصغر ذات قلب على هذا الكبر . فعدد زوار الكويت وضيوفها ، افراد
ومندوبين ، ممن تقوم الكويت باستضافتهم باستمرار وتقيم لهم الحفلات والمآدب ، يفوق
اية سابقة في التاريخ . بل ان رجال مؤسسات الاعمال الذين يأتون الى الكويت لاي سبب
يحلون هم ايضا ضيوفا على الحكومة . والواقع ان مجموعة مضافات الكويت هي احد
المؤسسات الكبرى فيها ، وتدرّ الفنادق التي ينزل فيها ضيوف الحكومة ، ارباحا طامعا
على اصحابها . وفي الكويت ايضا عدد كبير من رجال العرب المعروفين في بلادهم
غادروا بلادهم راضين او مرغمين واعطوا في الكويت اعمالا ومناصب .

كانت الكويت القديمة مثلا للمدينة العربية الصحراوية . وقد شهدت ، خاصة في الع

الاخير من السنين ، تبديلا معجزا . وكان تطور الكويت سريعا جدا الى حد انها تقدمت على سائر المدن العربية الاخرى تقريبا في البناء وفي مستوى المعيشة وفي التركيب والمحتوى المدني . وهي تتفوق على كافة المدن العربية من حيث الخدمات الاجتماعية والطاقة الكهربائية والقوة الشرائية وفي حقول الانعاش الاجتماعي . وقد كسرت الكويت جميع المعدلات السابقة في ميدان بناء المدارس ، فلا شك ان مباني المؤسسات التعليمية هنا يمتاز بامتياز كبير عما هو عليه في اية مدينة عربية اخرى ، ان لم نقل في اية مدينة اخرى اطلاقا . اجل ، لقد قامت الكويت في حقل التعليم بعمل مدهش . فالمدارس التي بنتها ، من حدائق وروضات الاطفال الى المدارس الثانوية ، تستحوذ على الاعجاب . ولا يتوانى مخططوها عن توفير كل جهد لتزويد الطلبة باعلى مستويات التسهيلات والمرافق . ثم ان جامعة الكويت تلوح في الافق - وستصبح ، عندما تفتح ابوابها لاستقبال الطلاب من الكويت ومنطقة الخليج العربي ، نبراسا للنور والعلم في منطقة مضى عليها وقت طويل وهي منسية ، او لعلها هي نسيت العالم .

وهناك حقل آخر حققت الكويت فيه معجزة . فبينما ادى مسير العمران الآلي في كثير من المدن العربية الى اباداة عدد ضخم من الاشجار والمناظر الطبيعية المحلية ، وقضى على الخضرة بلا مبالاة وبقسوة ، انشأت الكويت ، على ارضها الصحراوية ، وبالرغم من ندرة المطر والماء ومن الطقس المحرق ، مئات الآلاف من الاشجار والفدادين العديدة من الخضرة والمناظر الطبيعية الجميلة الواسعة . وقد يبدو غريبا ان نقول ان الانطباع الذي تركه الكويت في اماكن كثيرة هو انطباع عن مدينة حدائقية خضراء ، في حين ان اكثر من مدينة عربية ، كانت منذ نشوئها الى ما قبل سنوات فحسب مدينة حدائق خضراء ، قد اوضحت الآن ذات مظهر صحراوي جاف .

ان الكويت اروع المدن العربية ، من اكثر من ناحية وبالرغم من عوائقها الكثيرة . وربما كان الله والقدر قد شاءا لهذه المعجزة العربية العمرانية ان تحصل في اقصى بقعة من بقاع الارض ، لتقوم بدور المرشد ، كمصباح هداية ، للمدن العربية الاخرى ، لتعرف ماذا عليها ان تفعل من اجل سكانها . افليست المدينة ، في جوهرها ، مجرد مكان يقدم لسكانه محيطا يؤمن لهم الصحة والرفاهية والامان ؟

ان الكويت اقرب المدن العربية قاطبة من التقيد بالمطالب الاساسية لتخطيط المدن الانساني . ان مجتمعا بكامله معد للبناء ، للبناء من اجل الانسان - وذلك ، على ما اعتقد ، هو الهدف الاسمي ، والعمل الاسمي ، والانجاز الاسمي . لهذا فاعتقادي ان الكويت ستظل تذكر على الدوام ، فان ما شادته من اجل خير الانسان سيخلد طويلا من بعد ان يزول ما شيد من اجل باطل الانسان وغرور الانسان .